في عيد البنجة

الصابئة المندائيون في الناصرية يتمنون المحبة.. والسلام.. والأمان للجميع

حسين كريم العامل

في ساعات الصباح الأولى ومن باب المندى خرج سبعة أشخاص يرتدون قمصانهم البيض الطويلة وسراويلهم البيض القصيرة خرجوا محتزمين (بسفيفة) من صوف وتوجهوا صوب شاطئ الفرات ليرتمسوا بماء النهر. كان النهر قريباً من المندى والطقس فيه من البرودة ما جعل جسد الطفل الذي كان مع الأشخاص السبعة يرتجف بعد خروجه من الماء، فالساعة كانت تشير إلى السابعة صباحاً واليوم كان ١٨ آذار.

عيد البنجة

حين طلبنا من السيد عبد الكريم سالم عكيلي رئيس مجلس طائفة الصابئة المندائيين في الناصرية أن يحدثنا عن أيام البنجة الخمسة، مد يده في جيبه وأخرج منشوراً يتضمن الكثير من المعلومات عن العيد، وقال: انتق منها ما تشاء فكلها صالحة للنشر. فاقتطفنا منها النص الذي يتحدث عن عيد البنجة: (تعتبر البروتايا "البنجة" أسعد أيام السنة على الإطلاق. وتعد من أهم الأعياد، فهي ذكرى خلق وتكوين عوالم النور والأرواح الأثيرية الأولى، وفيها تفتح بوابات النور وتنزل الملائكة والأرواح الطاهرة. لذلك فإن الأيام المقدسة لا تحتسب ضمن أيام السنة ولا تحتسب من العمر أيضا. كلها نور ليس فيها ليل. فهي يوم واحد لا يداخله ظلام. وتبتهج فيها النفس والأرواح لأنها سر الرب الخالق (مسبح باسمه) لذلك فإنها من حصة النفس والروح المعرجة إلى أصلها، الحياة الأولى وأيامها وهي كالآتي:

اليوم الأول (بلايا ربا - الرب العظيم)

واليوم الثاني (مارا أوزيوثا - رب العظمة) واليوم الثالث (مندا اوهي - عارف الحياة) واليوم الرابع (دموث كشطا - رب الحق) واليوم الخامس (المياه الجارية الحية) بهذا يجري المندائيون الطقوس الدينية).

وتقول الليدي دراور عن البنجة ما نصه:

هذه الأيام الخمسة الكبيسة "البرواتانا أو البنجة" أسعد أيام السنة على الإطلاق، وفيها يقام أكبر عيد عمادي نهري.. والبنجة احتفال ديني أكثر مما هي عيد) إذ تجري فيها احتفالية تعميد لكل الصابئة بالماء الجاري، وتقام في هذه الأيام التي أخذت اسمها من اللغة الفارسية الوجبات الطقية (اللوفاني) على روح المتوفى. وتشمل تقديم اللحم والسمك حسب قدرة أهل المتوفى المادية وهي غير مقيدة.

وأيام البنجة غير متطابقة مع التقويم الميلادي، فهي تتغير كل سنة لكون الأشهر في التقويم المندائي تتكون من ٣٠ يوماً، فضلاً عن الأيام الخمسة الكبيسة.

الرستة

أكثر ما يميز الصابئة المندائيين في أعيادهم هو ملابسهم البيض "الرستة" وارتماسهم بالماء. والبنجة من الأعياد التي تعتمد في طقوسها كثيراً على الماء. فمنذ الساعة السابعة صباحاً أخذ الصابئة يتوافدون على الشاطئ وهم يرتدون رستهم البيض، التي تتكون من خمس قطع هي الكسويا والشروال والبرزنقا "العمامة" والنصيفة والهميانة. وهذه الأخيرة عبارة عن حزام من الصوف يتكون من ٦٠ خيطاً وهو أقدس جزء في الرستة. وحدثنا عنه الترميذة (رجل الدين) رعد كباشي الذي عمد عدداً كبيراً من المندائيين هذا الصباح قائلاً:

-ينسج هذا الحزام (الهيمانة) من ستين خيطاً من الصوف فضلاً عن خيط آخر يمثل الإله وهو الذي يلف الستين الباقية. وهذه (السفيفة) تمثل أسرار الإنسان التي مجموعها ستون سراً. وإضافة إلى الرستة وهيمانها المقدس يتختم الصابئة بإكليل من الآس أثناء التعميد، إذ يرفع الترميذة أثناء التعميد ذلك الإكليل من خنصر المتعمد "المصطبغ" الأيمن ويتوج به رأسه بوضعه فوق الجبين تحت العمامة، وهذه النقلة تمثل العهد الأول لتوبة المتعمد المصطبغ أمام رجل الدين.

التعميد

تبدأ طقوس البنجة بالوضوء "الرشامة" والصلاة "البراخا" حيث يقف المندائي على الشاطئ ويتوضأ ثلاث مرات، وذلك بغسل يديه ووجهه ورأسه بالماء الجاري ورش الماء على الركبتين وبعدها يقيم الصلاة.. صلاة الصبح، فقط فأيام عيد البنجة كلها نهار يقول الترميذة رعد كباشي عن هذه الأيام النورانية التي ليس فيها فرق بين الليل والنهار.

ويشرح السيد عبد الكريم سالم هذه الطقوس قائلاً: بعد أداء الصلاة يقرأ الأشخاص المراد تعميدهم تراتيل خاصة طلباً للرحمة وهم ممسكون (بالدرفش) (درافشا تاقنا) أو الراية المتقنة وهي عبارة عن غصنين متقاطعين وملفوفين بقطعة من الحرير الطبيعي الأبيض، سبعة أغصان من الآس، فالدرفس يعني انتشار النور والمحبة والسلام والحياة في الاتجاهات الأربعة. وبعد إتمام التراتيل ينزل المتعمد إلى الماء من يسار الترميذة "رجل الدين" ويستدير إلى اليمين ويغطس ثلاث مرات بالماء يتناول بعد ذلك ثلاثة كؤوس من الماء من رجل الدين الذي يمسك بعصا من الزيتون وقنينة من الماء المقدس كأسان يشربهما المتعمد والثالث يرشه على جسده. وهذه الجرعات تمثل الروح والنفس والجسد. وأثناء طقوس التعميد يقوم الترميذة بنقل غصن الآس من الخنصر الأيمن للمتعمد ليضعه فوق الجبهة تحت العمامة. وعموماً لا يجوز للترميذة تعميد شخصين في آن واحد. وينزل المندائيون فرادى للنهر لغرض التعميد، ينتظر خروج الآخرين ليتم طقس آخر هو الدوران ثلاث مرات حول الطريانة من اليسار إلى اليمين، والطريانة موقد لإشعال البخور ينتصب بجوارها الدرفش. ولا تتم طقوس الدوران إلا بعد خروج الترميذة من النهر. ويتم الدوران جماعياً وبحسب أسبقية خروجهم من الماء. ويشير السيد عبد الكريم إلى هذه الالتفافة من اليسار إلى اليمين على أنها انتقال من الظلام إلى النور. وفي هذا الطقس يرسم رجل الدين على جبهة المتعمد وسم الحي العظيم، ويبدأ بقراءة التراتيل والأدعية لطلب الرحمة وغفران الخطايا يرددها وراءه المتعمدون. ويقول الترميذة رعد كباشي عن الارتماس في الماء:

(الماء هو الذكر والأرض هي الأم والإنسان حين ينزل الماء يصبح جنيناً. وبعد التعميد يولد الإنسان من جديد لأن التعميد يغفر الأخطاء غير المقصودة أما المقصودة فغفرانها عند الله).

تعميد الأواني

أثناء مراقبتي لطقوس الأشخاص شاهدت عدة أشخاص يحملون صرراً تحوي أواني منزلية، قدور وصواني وصحون وينالونها إلى الترميذة الغاطس إلى حد ركبتيه في الماء، ليديرها حوله من اليسار إلى اليمين واحدة تلو الأخرى، ويتلو عليها الأدعية الخاصة. وحين سألت عن هذه الأواني قالوا إنها الأواني التي يطبخ فيها (اللوفاني) طعام الغفران، وهذا الطعام يوزع على روح المتوفى لطلب المغفرة والثواب، وإنه لكل آنية دعاء خاص، فدعاء الآنية المصنوعة من النحاس يختلف عن دعاء الآنية المصنوعة من الفافون.

انطباعات

ويعبر السيد عبد السلام لعيبي ياسين أحد أبناء طائفة الصابئة المندائيين عن فرحته بأيام البنجة قائلا:

إن هذه المناسبة هي لمراجعة النفس والعودة إلى طريق الصواب وتطبيق التعاليم الدينية بصورة صحيحة. كما إنها فرصة لإزالة الأحقاد وهي عيد للتسامح. البنجة أفضل الأعياد لأن مراسيمها الدينية شاملة. إذ تسبقها أيام صيام عن الأرواح، أي صيام عن اللحوم وما ينتج من اللحوم الحية كالبيض، وفي أيام البنجة لا يجوز شرب الخمر وممارسة الجنس ولعب القمار وتقول عدوية جويان:

هذه الأيام هي أيام النور وهي عيد الخليقة. وهي أيضاً فرصة لطلب المغفرة والشروع بعمل الخير - إن التعميد هو لغسل الذنوب والتطهر من الخطايا. والتعميد بالمندائية كالاعتراف عند المسيحيين. وفي أيام البنجة تكون السماء مفتوحة للمغفرة وطلب الرحمة.

ويقول ضياء شاهين:

-بعد التعميد يطلب الإنسان من الله ما يتمناه وفي هذه الأيام تكون الدعوات مستجابة والتوبة مقبولة. وحين سألناه عن أمنياته في هذا العام قال:

-لقد طلبت المغفرة للموتى وخاصة بالنسبة لأبي وأمي باعتبارهما الرب الثاني وبعد ذلك تمنيت الصحة والخير والمحبة لأبناء طائفتي والسلام لجميع البشر. أما شامل إبراهيم فقد قال:

-إن الإنسان لا يطلب غير الخير والسلام والأمان في هذه الأيام فالأمنيات الشريرة غير مسموح بها في أيام البنجة لأنها أيام جديرة بالمحبة وفيها تتم تنقية النفوس..

أما ابتسام شاهين فلم تطلب سوى العافية والأفراح والصحة للجميع في (المدى) وتمنت السلام للبشر.

في (ماي)

حلقة التعليم المفرغة

سعيد عبد الهادي

في أحد المؤتمرات التي ضمت أساتذة الكيمياء، مطلع الثمانينيات، تكلم أستاذ جامعي عن سوء إعداد الطلبة المقبولين في الأقسام العلمية، فاجابه أستاذ ثانوي بالقول، أعطونا أستاذاً جيداً نعطيكم طالباً جيداً.

حلقة مفرغة يدور التعليم فيها، منذ أن تحكمت بنا أهواء السياسة، ولم يعد للتقويم التربوي وجود، على الرغم من أنه يمثل الحصاد الاستراتيجي للعملية التربوية، والتقويم هو الوسيلة الوحيدة للتحقق من وجود الجودة الشاملة، أو انعدامها، في العملية التعليمية، أهمل التقويم تماماً، وبدأ الطالب يقطف ثمار التسييس حتى وصلنا إلى مجموعة طبية لا تقبل إلا من تجاوز معدله الـ(١٠٠٪).

هذه (الفنطازيا) لا يمكن علاجها إلا بالاستئصال، ولأنه أمر غير ممكن الآن، فهذا يعني أن المئات من حملة الشهادات العليا المعينين بحسب الامتيازات الحزبية السابقة، سوف تبقى تحتكر المؤسسة التعليمية، والأمر الأشد سوءاً، أن التعيينات الحالية خضعت للمنطق نفسه، فمن لم يستطع أن يجد حزباً يدعمه، لن يجد مكاناً يناسب كفاءته، والأمر المرير أن الأحزاب بدأت تحاول فرض أتباعها في مجال الدراسات العليا. لقد تناسلت روح البعث، وعلينا أن نتجه للعرافات، كل يأتي بكتاب تزكية بيمينه، وما على المسؤول إلا أن يصفق كفيه موافقاً أو يستند إلى حزبه رافضاً!

هل يعقل أن تدار المؤسسة التعليمية بهذه الطريقة؟ وهل يعقل أن الأحزاب التي أوجعت رؤوس الخلق بالحديث عن سلبيات المرحلة السابقة تقوم بالممارسات المنقودة نفسها؟

كنا نأمل أن تتكاتف جهود كل القوى في سبيل تعزيز سلطة القانون وإعادة الهيبة لمجال التعليم، ولكن ما حصل أن السلبية والحيادية طبعت امعظم ممارسات هذه القوى، على الرغم من إدراكها أن هذه الممارسات سوف تطبع في ذهن المواطن العراقي أحكاماً قاسية، والعزوف أولاها، فهذه القوى التي انشغلت عن فتح فضاء للديمقراطية، داخل الحرم الجامعي والمدارس الثانوية، من خلال الحوار الحر لبناء الشخصية الوطنية، انشغلت بمحاباة أعضائها، وإذا ما بقي حقل التعليم خاضعاً لاشتراطات السياسة، ولأخلاق الساسة، ومنقاداً لأهواء الزعماء فإن هذا الأمر يشير إلى خراب أكبر، فسوف تطرد النخب ذات الكفاءة، ولن يستطيع الزعماء، كما قد توهموا، التحكم في رغائب من حكم عليهم بالتجهيل، وسوف تتحول الكليات إلى عشائر والعمداء إلى شيوخ!!

عرش الأسرة مسؤولية وليس وجاهة

رياح التغيير.. تهب على البيت العراقي

عائدة محمود

تزداد حالياً قوة الأصوات النسوية المطالبة بتفعيل دور المرأة ومشاركتها الجدية بصنع القرار وبإدارة مفاصل الدولة. وإذا ما علمنا أن المرأة هي نصف المجتمع، أو تزيد (حسب الإحصائيات الأخيرة للسكان) يمكننا هنا تقدير دورها الفاعل.. والمتتبع لحركة نهضة المرأة يجدها قد ساهمت منذ عام ١٩٢٤ بمساع ونشاطات قامت بها جمعيات واتحادات ومنظمات وبمناصرة ومباركة ثلة واعية من رجال كانوا ربما أكثر واقعية من غيرهم في مد يد العون لها.. ربما كانوا قد أدركوا قبل غيرهم أن رياح التغيير لا بد أن تهب يوماً على البيت العراقي، فأرادوا لهذه الرياح أن تكون نسائم غير عاصفة بحياة المجتمع.. وبكثير من الحكمة كان موقفهم مشجعاً للمرأة.. خاصة ونحن ندخل الألفية الثالثة بثقة كبيرة.

صورة حياة

هذه صورة من حياة أسر عراقية كان لا بد لها أن تتغير في مطلع الألفية الثالثة..

كان الرجل يأمر فيطاع، يصرخ فترتعد أوصال زوجته ويرتجف الأولاد خوفاً، ولم يكن أمام الأم الكثير من مجالات المواجهة أو المناورة، ولم تكن تجد سوى الدموع لتستدر الكثير أو القليل من عطف الرجل وربما تلجأ إلى المكر والحيلة كآلية دفاع لدى غير المتعلمات من النساء خصوصاً.

ليست هذه بالصورة الجميلة لواقع حياة الأسرة لكنها كانت وربما ما زالت سائدة.

إن شرائح من الأجيال النسائية الجديدة تحاول باستمرار إعادة صياغة سلوكيات الزوج، لا سيما إذا كانت تلك السلوكيات في حاجة ماسة للتقويم، معتقدة أن الدافع لذلك ليست السيطرة فحسب، بل لإرساء حياة زوجية مثالية، هذه آراء صريحة وجريئة لنخبة من النساء بعضهن ناشطات في مجال حقوق المرأة فضلاً عن آراء بعض الرجال:

ضعف الشخصية

تعتقد السيدة نجاة القره غولي أن حب السيطرة ليس متأصلاً داخل المرأة أو الرجل لكن كلاً منهما قد يسيطر على الآخر في حال اكتشافه ضعف شخصيته وتردده وعدم قدرته على اتخاذ القرارات المناسبة فنحن قد يخدعنا مظهر رجل مسالم وصامت بينما تبدو زوجته مسيطرة لأنها تأخذ القرارات. وتسير الأمور بقوة شخصيتها فنلومها أنها مسيطرة ونشفق على الرجل، لكننا في الحقيقة يجب أن نشفق عليها لأنها اضطرت إلى أن تفعل ذلك في ظل غياب شخصية الرجل وضعفه وعدم قدرته على الإمساك بزمام الأمور!

وتتناول الكاتبة موضوع قوامة الرجال على النساء في أمور عديدة منها: الإنفاق وحماية الأسرة ورعايتها والاهتمام بشؤونها فتقول:

-إنه في حال اختلال شرط من شروط القوامة، كأن يكون الرجل غير متوازن، ولديه ضعف في شخصيته وفي قدراته القيادية، وإمكانية وفائه بالتزامات قوامته يصبح للمرأة الحق في أن تدلي بدلوها، وأن تكون صاحبة مسؤولية لإصلاح الخلل.

المدرسة (سوسن طه) ترى أن المرأة والرجل ينسيان تماماً أن لكل منها تركيبة خاصة ونشأة متباينة وجذوراً مختلفة. وأن على كل منهما قبول الآخر كما هو عليه، وليس كما ينبغي أن يكون، خاصة إن كانت السلوكيات قبل التقويم غير سلبية إلى حد الإزعاج. فلا بد أن تكون السلوكيات اليومية محاطة بمساحة من الحرية الشخصية، حتى لا يشعر الزوج بأنه محاصر وتزيد الخلافات، كما إن تصور المرأة بأنها تحكم مملكة يزيد من تسلطها، في حين أن هذه المملكة ملك مشاع للأسرة كلها.

رياح التغيير

ترى الباحثة (بشرى عبد الوهاب) أن التغيير الذي أصاب العائلة أدى إلى سلب بعض الحقوق من الأب، فالسلطة انتقلت إلى الأم ثم إلى الابن، لذلك استطاع الابن أن يقوي من مركزه وأن تكون له كلمة في محيط الأسرة. كما إن الأسرة أصبح فيها نوع من الاستقلال الداخلي بين الزوجين من الناحية الاقتصادية، عندما تكون الزوجة موظفة، فيظهر ضعف سلطة الأب في المجتمع المتغير، ويبدأ الأبناء يأخذون المركز القيادي. كما أن تعليم الفتاة ساعد على زيادة وعيها الثقافي، مما أتاح لها الفرصة للتعبير عن رأيها وفرض وجودها. أما الدكتورة الطبيبة (ميسون كامل) فتعتقد أن الرجل لا يستغني عن المرأة ولا هي.. أيضاً كانت الزوجة تدير شؤون الأسرة فقط، والرجل هو الذي يخرج لـ(العالم الخارجي) سعياً للرزق، لكنها الآن أصبحت تشاركه في العمل وبالتالي في الدور الاجتماعي.

القوامة

وتؤكد السيدة (...) أن القوامة التي ذكرها الله في كتابه العزيز تبقي الرجل في عيني المرأة هو الأساس، مهما كان ظلمه وشراسته. ولو سيطرت المرأة على الحياة الأسرية فإنها دائماً تسأل نفسها (أين الحياة)؟ أين الأنوثة؟ قد اختلف مع الرجل أو أكرهه ولكنه يبقى السند والمعين. ولنكن واقعيين ونتساءل أي سيطرة وأي قوامة للمرأة على الرجل؟ لقد نالت المرأة حقوقها وتعلمت ووصلت إلى أعلى المناصب بفضل تشجيع الرجل ماذا تريد بعد ذلك؟ كانت في السابق لا تخرج من بيتها إلا بصحبة محرم، وإذا رأت رجلاً أخفت وجهها، أما اليوم فإنها تجلس بجانبه في الجامعة والعمل.

وتقول الأختصاصية النفسية أمل عبد الجبار:

-إن المرأة تحب أن تكون لزوجها شخصية قوية، وليس معنى ذلك أن يلغي وجودها وكيانها، كما أن الأبناء عندما يبلغون سن المراهقة وبخاصة الذكور يحتاجون لوالد ذي شخصية قوية، ويستطيع معالجة المشكلات التي تمر بها الأسرة.

رأي.. الرجل

وللرجل رأي في هذه الإشكالية يقول علي الجبوري، وهو أحد الزملاء الصحفيين:

-إن العرش الذكوري في الأساس لم يكن يحمل مفهوم التسلط على الأسرة، لكن الإنسان وليد بيئته والحياة الاجتماعية التي يعيشها، وهي التي تصنع أهمية الرجل، والزوجان ممسكان بعرش الزوجية ليس لأحدهما من دالة على الآخر إلا من خلال التفاهم وتحديد المهمات، والمرأة في العصر الحالي أصبحت لديها مسؤوليات عديدة وأعباء تختلف عن السابق، فهي تشارك الرجل في مسؤولياته وعرش الأسرة مسؤولية وليس وجاهة.. ثم يضيف:

نعم لقد اهتز عرش الرجل في الآونة الأخيرة. وهذا ليس مبعثه المرأة بل نتيجة الظروف التي تحكم الطرفين، ولو نظرنا للتاريخ العربي اجتماعياً وفكرياً نجد الصحراء والبادية. وهذا الوضع المناخي الجغرافي، الذي حرم هذه المنطقة من مباهج الطبيعة، جعل الإنسان يرى مباهجه وتطلعاته وكل ما هو محروم منه في المرأة، التي كانت محل اعتزاز وتقدير. وجاءت الوصايا الملحة على الرجل وجعلها مصونة مكرمة. فكيف لبعض الرجال من أن ينقص من قدر المرأة.

ويعترف السيد محمد طالب بأن الاقتناع بتوازن العلاقة ليس سهلاً ويقول:

-أشعر بحكم تكويني الثقافي والاجتماعي والتاريخي بأنني لا أزال ميالاً لحب السيطرة داخل أسرتي برغم شعوري بأن هذا خطأ، لكنني لا أستطيع أن أصرح به أو أن أتنازل عن بعض حقوقي التاريخية التي ورثتها عن آبائي وأجدادي ومن محيطي الاجتماعي لمصلحة زوجتي. وفي المقابل أحاول دائماً أن أحد من جماح وشراسة هذه السيطرة بأن ألجأ بين حين وآخر إلى إسلوب ديمقراطي في الحوار لاتخاذ القرارات.

التفاهم والمشاركة

ويوضح الدكتور محمد النوري أستاذ علم النفس أن البعض يحاول اختلاق مقولة المرأة المستضعفة المضطهدة، وقد تكون هناك بعض الحالات ولكن التفاهم والمشاركة هما الأساس والقاعدة، إن المرأة قطعت شوطاً كبيراً في مجال تحقيق الذات والوجود، وإن حاول البعض انتقاص هذا الدور لأهداف غير نبيلة. فقد أثبتت المرأة وجودها في ميادين العلم والعمل..

ويؤكد أستاذ علم الاجتماع الدكتور أحمد عبد الباقي: إن الحياة الاجتماعية بدءاً من التكوين البشري الأول وحتى الآن تقوم على كون سيطرة الرجل هي الغالبة داخل الكيان الأسري، وهذه السيطرة جاءت بفعل عوامل بيولوجية ومكتسبة، فهو أكثر قوة، وهو المعني بالإنفاق على الأسرة، وظلت المرأة في السابق خاضعة لسيطرة الرجل، غير أنه مع تقدم المجتمعات البشرية والمطالبة بضرورة المساواة بين الرجل والمرأة في كثير من العلاقات الاجتماعية تضاءلت الظروف وأصبحت المرأة تعمل مثل الرجل.

هل آن الأوان لأن يغير الرجل (أو بعض الرجال) من نظرته المتخلفة للمرأة وأن يستمع إلى آرائها؟ وأن يغير بعضاً من ستراتيجيات قمعها؟ وأن لا ينسى بأنها -نصفه الحلو.. وأن دينه لا يكتمل إلا بوجودها زوجة إلى جانبه!؟